مظاهر الثقافة القرآنية في أشعار الشيخ حياتي

صدِّيق مصطفى الريَّح

توطئة:

من يطلع على ديوان الشيخ حياتي – رحمه الله – يلفت نظره ما فيه من مظاهر متعددة للثقافة الإسلامية من قرآن وحديث وسيرة وفقه ولغة، إلى جانب الثقافة السودانية المحلية، والثقافة الطبية والجغرافية، وبعض مظاهر الثقافة بالحياة المعاصرة للشيخ... إلخ. وقد اخترت التركيز على الثقافة القرآنية، باعتبار أن القرآن معجزة الرسول (ﷺ) الكبرى التي قامت عليها رسالته، كما أن القرآن سبق المادحين إلى مدحه (ﷺ)، ويضاف إلى كل ذلك وضوح تأثر الشيخ حياتي بالقرآن وآياته وضوحاً تنطق به كل قصيدة من قصائده لفظاً أو معنى أو روحاً عامة.

ولا أدعي أنني سأحيط بكل ما يتصل بالقرآن في ديوان الشيخ، لأن ذلك يتطلب علماً وجهداً كبيرين لا أحسبني من أهلهما، فالشواهد على ثقافة الشيخ حياتي القرآنية تصلح لأن تكون كتاباً كاملاً، وكل جزئية مما تناولته في هذا البحث تصلح أن تكون فصلاً كاملاً في ذلك الكتاب. لذلك فقد اكتفيت بعدد من الشواهد لكل نوع ظهر لي – مع وجود عشرات منه في الديوان – لأن فيما ذكر غنى عما لم يذكر. ودرجت على عرض أبيات الشيخ مقرونة مع الآيات التي استفاد منها لفظاً أو معنىً أو روحاً مع التعليق الذي يلقي الضوء على وجه الاستشهاد.

التعريف بالشيخ حياتي:

هو الشيخ محمد حياتي بن الحاج حمد بن محمد العربي،[1] المولود في عام ١٢٩٠هـ، الموافق ١٨٧١م بقرية أم ضواً بان. وقد نشأ الشيخ حياتي أولاً تحت كفالة والده الحاج حمد الذي كان من أوائل تلاميذ الشيخ محمد ود بدر، وبعد استشهاد والده عام ١٣٠١هـ الموافق ١٨٨٤م أشرف على تربيته جده الشيخ محمد ود بدر ثم الخليفة أحمد بن الشيخ محمد ود بدر. وبعد بلوغه سن السابعة والعشرين استقر به المقام بقرية "الصقيعة" على شاطئ النيل الأزرق غرب مدينة رفاعة، وأسس مسيده بها حيث أخذ بتدريس القرآن، وقد بقي بالقرية المذكورة حتى وفاته في عام ١٩٤٣م.

وقد تميَّز الشيخ حياتي بثقافة إسلامية واسعة،[2] كما كان يتصف بمَلَكة شعرية عالية ظهرت جلية في مدائحه للمصطفى (ﷺ) التي بدأها وعمره آنذاك تسعة عشر عاماً، ولم ينقطع حتى وافاه الأجل. ونتيجة لذلك خلَّف الشيخ حياتي ثروة شعرية ضخمة في المديح النبوي معظمه كان مكتوباً بخط يده. "وجاء شعره مشحوناً بالمعاني العميقة والإشراقات الصوفية، كما كانت له مقدرة خارقة للعادة في مجاراة من سبقوه في قصائدهم".[3]

الشيخ حياتي والقرآن:

يقول البروفيسور عون الشريف قاسم عن الشيخ حياتي مشيراً إلى تعدُّد مصادر ثقافة الشيخ وعلى رأسها القرآن الكريم: "قد درج ونشأ في بيئة دين وعلم

(١) انظر مقدمة ديوان الشيخ حياتي، جمع وتحقيق د. الطيب أحمد المصطفى حياتي و د. محمد مهدي أحمد، ط ١، ١٩٩٣، دار جامعة الخرطوم للنشر، ص ٦.

(٢) مقدمة الديوان، ص ٩.

(٣) مجموعة القرشي في المدائح النبوية الشعبية في السودان، قرشي محمد حسن، ج ٤، ط ١، ١٩٩٦، دار الجيل، بيروت، ص ١٥. ١٦.

وحب لرسول الله (ﷺ)، فعاش منذ نعومة أظفاره في جو أكثر ما يسمع فيه تلاوة القرآن في الخلاوي وذكر الله ومدح المصطفى في حلقات الذكر؛ فامتلأت روحه بحب القرآن وحب المصطفى (ﷺ)، ودفعه ذلك إلى التعمق في طلب العلم فأوعب في دراسة القرآن وعلوم الشريعة وطالع قدراً عظيماً من كتب السيرة والمغازي، وقد انعكس كل ذلك في شعره".[٤]

وجاء في مقدمة جامعي الديوان ومحققيه أن الشيخ حياتي ـ رحمه الله ـ حفظ القرآن الكريم قبل أن يبلغ الخامسة عشرة من عمره.[٥] كما أنه لم يبتعد عن القرآن طوال حياته، فقد اشتغل بتدريس القرآن، وأسس مسيده بقرية "الصقيعة"، و"أوقد نار القرآن وأخذ في تدريس أبنائه وأبناء المنطقة، وقد حفظ على يده القرآن الكريم عدد كبير من أبناء المسلمين".[٦]

ومما لا شك فيه أن حفظ القرآن والاشتغال بتدريسه لفترة طويلة، لابد أن يترك أثراً واضحاً في شعر من ينهل منه ويتشبع بمعانيه وألفاظه وآدابه، فلا غرو إذن أن ينعكس ذلك على فن الشيخ، وهو المديح النبوي الذي اعتاد على سماعه منذ الصغر في تلك البيئة الدينية التي يشكل المديح النبوي والذكر بأشكاله المختلفة نشاطاً يومياً فيها، وهو فن تعلَّق به الشيخ كتعلُّقه بالقرآن. فما أن بدأ ينظم المديح حتى وجد فيه وسيلة للتعبير عن هذين العشقين: حبه للقرآن وحبه للمديح النابع من حبه للمصطفى (ﷺ).

(٤) مقدمة الديوان، ص ٦.

(٥) نفسه، ص ٩.

(٦) نفسه، ص ٨.

أهم المحاور التي تُظهر ثقافة الشيخ القرآنية في أشعاره:

تتجلى ثقافة الشيخ حياتي القرآنية في عدد من المظاهر التي سنستعرضها في الصفحات التالية من خلال خمسة محاور هي:

أولاً – استعمال الألفاظ القرآنية:

تكثر في ديوان الشيخ ألفاظ ارتبط استعمالها بالقرآن؛ وإن عرفها العرب قبل الإسلام، إلا أن القرآن أكسبها الشهرة بما أضفاه عليها من جدة أو خصوصية في المعنى، فكونت ما يمكن أن نسميه المعجم القرآني. وإذا استثنينا ألفاظاً مثل الصلاة والزكاة ونحوها، وأسماء الأنبياء وأسماء الجلالة والملائكة، والألفاظ المعبرةٍ عن الثواب والعقاب والضلال والكفر والهدى والإيمان وما ماثلها، فإننا نجد مئات الكلمات الأخرى التي تدل على أنها وقعت للشيخ من حفظه للقرآن. فمن ذلك استعماله كلمة "برزخ" في قوله:

إنْ أَجِبْتِ سُؤالِكْ بَرْزَخِك يَحْلالِكْ
حَسْبَما أعْمَالِك المَفَازْ به يَا لِكْ
عِلِّيين هَنيَالِكْ[٧]

فالبرزخ عند اللغويين هو الحاجز بين شيئين[٨] كما هو في قوله تعالى: (بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ)،[٩] ولكن الشيخ استخدمها هنا بمعنى آخر موجود أيضاً في قوله تعالى: (لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ

(٧) الديوان، ص ٩٥.
(٨) لسان العرب لابن منظور، ج ١، ط ٣، ١٩٩٩م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص ٣٧٥.
(٩) سورة الرحمن، آية ٢٠.

إِلَى يَوْم يُبْعَثُونَ)،[١٠] فقد نقل عن الضحاك في تفسير البرزخ "هو ما بين الدنيا والآخرة".[١١] وهذا المعنى يتفق معه استعمال الشيخ، بدليل أنه رتب حسن المآل على إجابة السؤال في القبر، الذي يمثل الحاجز بين نهاية حياة الإنسان في الدنيا وبداية بعثه في الآخرة. كما أنه قرن بين الأعمال واستعمال كلمة البرزخ كما هو الحال في الآية.

ويستوقفنا في الأبيات كذلك استعماله كلمة "عليين"، وهي لفظة وإن عرفها العرب بمعنى أهل الشرف في الدنيا والثروة والغنى، في نحو قولهم: فلان من أهل عليين، وفي تسميتهم لمن ينزلون أعالي البلاد "عليُّون"،[١٢] إلا أنها من الألفاظ التي أعطاها القرآن بعداً جديداً، إذ خص بها أعلى مكان في الجنة، وأشرف المراتب وأقربها إلى الله، كما في قوله تعالى: (كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ).[١٣]

وشاهد آخر ذو قيمة هنا، وهو استعماله كلمة "بكة" في قوله:

بَكَّة شَرَّفْ بيْتَها وحَرَمَا الله من شانُ الأمور بَرَمَا[١٤]

ولو استعمل الشيخ كلمة "مكة" لما فاته شيء من المعنى ولا الوزن، لكنه قصد المجيء باللفظ القرآني الوارد في الآية: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ).[١٥]

(١٠) سورة المؤمنون، آية ١٠٠.

(١١) معاني القرآن الكريم للنحاس، تحقيق: محمد علي الصابوني، ج ٤، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، جامعة أم القرى – مكة المكرمة، ص ٤٨٥.

(١٢) لسان العرب، ج ٩، ص ٣٨٥.

(١٣) سورة المطففين، آية ١٨.

(١٤) الديوان، ص ١١٩ (الأمور برما: أي أبرمها).

(١٥) سورة آل عمران، آية ٩٦.

وثمة مظهر آخر فيما يتصل بألفاظ القرآن، وهو أن الشيخ يستعير الألفاظ القرآنية متصرفاً فيها بالتحوير لتناسب ما يريده من مدحه (ﷺ)، ففي قوله:

ذَوا اليُتْم ما قَهَرْ والسائل ما نَهَرْ [١٦]

يستفيد من ألفاظ الآيتين: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)،[١٧] ويتخذ من ذلك وسيلة لمدحه (ﷺ) مع حسن التصرف بتغيير صيغة الفعلين من المضارع الذي يفيد النهي إلى الماضي المنفي الذي يفيد إلى جانب اتصافه (ﷺ) بهذه الصفات معنى الاستجابة للنهي الرباني. وانظر في قوله:

الخُصَّ بالكوثر بي كل شيء مؤثر [١٨]

كيف حوَّر في الآية: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)[١٩] ليتخذ من ذلك وسيلة لمدح المصطفى (ﷺ)، مع ملاحظة دلالة الفعل المبني للمجهول "خُصَّ" على التمييز بهذه العطية، مما يرسل شحنة من المدح إضافية على فعل الإعطاء.

ومظهر ثالث تجب الإشارة إليه وهو براعة الشيخ في الاستفادة من ألفاظ القرآن لإقامة الوزن والقافية مع مراعاة التناسب، وهذا الصنيع دليل على تعمق الثقافة القرآنية في نفسه، وتمكنه من العلم بالقرآن واستظهاره لألفاظه؛ فما إن يحتاج للفظة لإقامة الوزن أو القافية أو ليحقق التناسب بين ألفاظه إلا ووجد بغيته في القرآن؛ فتأتي الكلمة في موضعها دون تكلف أو استكراه؛ فتحسن في ذلك الموضع، ومن أمثلة ذلك قوله:

(١٦) الديوان، ص ١٧٤.
(١٧) سورة الضحى، الآيتان ٩ ـ ١٠.
(١٨) الديوان، ص ٧٤.
(١٩) سورة الكوثر، آية ١.

الصلا الماهرة

من حياتي على والد الطاهرة تمح أوزارُ الكامنه والظاهرة

تَنْجِي والأمة في ذي والساهرة[٢٠]

فانظر إلى تمكن كلمة الساهرة من موضعها مع مناسبتها لما قبلها! وهل تجد كلمة يمكن أن تكون مكانها باستثناء كلمة الآخرة؟ التي وإن كانت تؤدي المعنى و تقيم الوزن والقافية مثلها، إلا أنها تذهب بالجمال الصوتي الذي يتأتى من كلمة الساهرة التي جاء بها على طريقته في لزوم ما لا يلزم،[٢١] ولا يخفى عليك أن الكلمة مأخوذة من الآية: (فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ).[٢٢] وانظر في قوله:

شمس الجوّ في ضُحاها من مُحَيَّاهُ اسْتِحَاهَا

ذو التَّبْجِيلُ عِنْ إِلاها ورب الأرض الدَّحَاها[٢٣]

إلى حسن كلمة (ضحاها) في هذا الموضع، مع تمام التمكن فيه من حيث ملائمة الوزن والقافية، ومن حيث أداء المعنى. فالشمس التي تستحي ليست هي الشمس في كل وقت، إنما هي شمس الضحى، وخصَّصها لأنها أكثر ما تكون بهاءً ووضوحاً، وهذه الشمس تستحي ممن؟ من هذا الذي له المكانة الرفيعة عند إلهها وإله الأرض، وأي أرض؟ هذه الأرض التي في بسطها لتكون مهيأة لحياة الإنسان منتهى الإعجاز!

(٢٠) الديوان، ص ٦٧.

(٢١) هو لون بديعي يلتزم فيه الناثر أو الناظم بحرف أو أكثر قبل حرف الروي مع عدم التكلف.

(٢٢) سورة النازعات، آية ١٤.

(٢٣) الديوان، ص ٢٥١.

ولا تخفى علينا الاستفادة من الآية: (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا).[٢٤] وكذلك الآية: (وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا).[٢٥]

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه فيما سبق – من أن الشيخ يستعين بثقافته القرآنية بكل اقتدار لإقامة الوزن والقافية. استعماله لكلمة "النيس" بالإمالة،[٢٦] وهي قراءة الدوري عن أبي عمرو الشائعة في خلاوي السودان. مكان كلمة الناس في قوله:

أُحْجَبْ من عِيُونِ النِّيسْ والجِنْ وأنْقَى من تَدْنِيسْ
وأمْشِ الحَقْ بلا دِهْنِيسْ والقُرآن يكُون لي أنيسْ[٢٧]

أرأيت لو استعمل الشاعر كلمة "الناس" هنا فهل تستقيم له القافية وإن استقام له الوزن؟ وهل ترى أن هذا الاستعمال كان اعتباطاً دون أن تعين الشيخ شاعريته أولاً، وعلمه بالقرآن وقراءاته ثانياً؟

ثانياً – الإفادة من معاني القرآن:

ويكون ذلك بصور مختلفة، منها:

أ / تضمين بعض معاني الآيات في أبياته:

فهو يضمِّن في أبياته معاني الآيات بصياغتها صياغة جديدة تناسب الشعر، أو الغرض الذي يرمي إليه مع حسن التصرف فيها، مما يدل على الفهم لمعانيها،

(٢٤) سورة الشمس، آية ١.
(٢٥) سورة النازعات، آية ٣٠.
(٢٦) انظر القراءات العشر المتواترة في هامش القرآن الكريم – علوي بن محمد بلفقيه، ص ٦٠٤، دار المهاجر، ط ٤، ٢٠٠٢.
(٢٧) الديوان، ص ٢٦٢.

مع الاقتدار على التعبير عنها بكل سهولة بما يلائم طبيعة الشعر وصناعته، ومن هذا الضرب نظر الشيخ إلى الآية: (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ)،[٢٨] فيأتي بمعناها وألفاظها بترتيبها، ليضمنها في بيته:

وَحِيدْ الشَّأنْ يَا ترا شَانِئ هُو الأبْتَرَا[٢٩]

ولا فرق كما تلاحظ بين الآية والشطرة الأخيرة إلا استعمال كلمة شانئ بدلاً من شانئك، وهذا التغيير الطفيف في صيغة الإخبار اقتضته صناعة الشعر. ويضمن في قوله:

لم يعد فكري

من ترادف سوءات في البكري والرَّواح راجي من له الشكرِ

والحمد حط اصري ورفع ذكري[٣٠]

معنى آيتين الأولى في الدعاء: (رَبَّنَا وَلَا تحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا)،[٣١] والثانية في شأن الرسول (ﷺ): (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)،[٣٢] حيث يستفيد من معنى الآيتين وبمهارة عجيبة يحوله إلى مجال الدعاء لنفسه، بعد الاعتراف بما اقترفه من سيئات في البكور والرواح، راجياً من الله المستوجب الشكر والحمد أن يحط ذنوبه عنه، وأن يعلي من ذكره بعد ذلك. وفهم الشيخ لمعاني الآيتين واضح، وإلا كيف نفسر استعماله كلمة "حط" مكان "لا تحمل" في الآية الأولى، وترتيب رفع الذكر على حط الذنوب عنه؟ وقوله:

(٢٨) سورة الكوثر، آية ٣.

(٢٩) الديوان، ص ٩٩.

(٣٠) نفسه، ص ١٢١.

(٣١) سورة البقرة، آية ٢٨٦.

(٣٢) سورة الشرح، آية ٤.

أصحابُ السُّجَّد الرُّحَما النُّجَّدْ ازاحُو الباطِلْ أقامُو الدِّينْ جَدْ[٣٣]

يتضمن إلى حد كبير معنى الآية: (مُحمَّد رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً).[٣٤] فالبيت يجمع صفات الصحابة المذكورة في الآية، من ركوع وسجود ورحمة بينهم، مع الشدة على الكفار وإن عبر عنها بوصفهم بالنجدة، وبما يدل على تلك الشدة من صفات مثل إزاحة الباطل وإقامة الدين، وإن لم تكن الشدة في مثل هذا الصنيع فأين تكون؟!

ب / تحوير معاني الآيات لمدحه (ﷺ):

وتحوير الشيخ لا يقتصر على تراكيب القرآن وألفاظها وصيغها، بل يتجاوزها كذلك إلى التحوير في معانيها جاعلاً من ذلك وسيلة لمدح الحبيب (ﷺ)، وليس أدل على ذلك من قوله:

آياتُ نامْيَة بَلا انْعِدادْ نَفَد البَحَرْ لَوْ كَانْ مِدَادْ[٣٥]

فيحور في معنى الآية: (قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً)،[٣٦] فنفاد البحر لو كان مداداً هنا يختص بكلمات الله، لكن الشيخ يحور في المعنى لمدحه (ﷺ)، إذ يجعل ذلك مختصاً بمعجزاته التي لا تحصى.

(٣٣) الديوان، ص ٥٣٦.
(٣٤) سورة الفتح، آية ٢٩.
(٣٥) الديوان، ص ٣١٥.
(٣٦) سورة الكهف، آية ١٠٩.

أما في قوله:

أعْلا الأنْبياء رُتَبْ ما قَرَأ المُبرَّأ كَتبْ [٣٧]

فيقضي له (ﷺ) بعلو الرتبة على غيره من الأنبياء مستفيداً من معنى الآيات التي تشير إلى تفضيل الله بعض الأنبياء على بعض، كما في قوله تعالى: (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)،[٣٨] كما يستفيد من معنى الآية: (وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)،[٣٩] محولاً ذلك بالتحوير في المعنى إلى مدح أساسه هذه الحجة، التي تؤكد أن دعوته لم تكن نتاج تعليم تلقاه، بل هي رسالة من عند الله، وما دام الأمر هكذا فما المانع أن يفضله من خصه بالرسالة على سواه من المرسلين؟

ج / الجمع بين معنى عدد من الآيات في جزء من بيت:

ويكون ذلك عن طريق الإشارة الموجزة، وهي طريقة لا تخطئها العين في الديوان، إذ يكتفي بالإشارة إلى معنى عدد من الآيات بأقل عدد من الكلمات، وهو ما يؤكد استحضار الشيخ لمعاني تلك الآيات، وافتراضه أن السامعين على دراية بما يشير إليه، وخير مثال لذلك قوله:

هَبْ لِيْ أوَّل الأنفالِ يا قادرْ وعَلِّ أسفالي[٤٠]

فهو يدعو الله أن يكون من المؤمنين حقاً، الذين سرد الله أوصافهم في أول سورة الأنفال، ووعدهم بالدرجات والمغفرة والرزق الكريم، والنص القرآني المشار

(٣٧) الديوان، ص ٥٤٥.

(٣٨) سورة البقرة، آية ٢٥٣.

(٣٩) سورة العنكبوت، آية ٤٨.

(٤٠) الديوان، ص ١٥٠.

إليه هو: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ).(٤١)

وشبيه بذلك قوله في الدعاء لنفسه:

واسْمَا بي جَاه الخُصَّ بي إقْرا حِصتَّي تكُون لِيْ أوَّل البَقَرَة(٤٢)

في إشارة إلى وصف المؤمنين – الذين يرجو الشيخ أن يكون منهم – الوارد في آيات سورة البقرة الأولى وهي: (الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).(٤٣)

وقد تأتي هذه الطريقة من الجمع بين معاني الآيات بالإشارات الموجزة فيما مُدِح به (ﷺ) في القرآن، ومنه قول الشيخ:

خِيرْة العَلِي الأحْكَمْ أَتَى مَدْحُ في المُحْكَمْ(٤٤)

فهو يشير إلى بعض الآيات التي وردت في مدحه (ﷺ)، وهو هنا لا يحدِّد موضعاً معيناً لمدح الرسول في القرآن. وقد يحدِّد لنا الشيخ في مواضع أخرى السور التي ورد فيها مدح الرسول (ﷺ)، كما في قوله:

(٤١) سورة الأنفال، الآيات ٢ ـ ٤.

(٤٢) الديوان، ص ٣٦٦ (اسما: أي أسمو).

(٤٣) سورة البقرة، الآيات ١ ـ ٥.

(٤٤) الديوان، ص ٨٨.

خُلْقُ جَا في نُونْ وأجرُ غيرْ ممنونْ[٤٥]

يريد بذلك ما ورد في سورة القلم من آيات، وهي قوله جلَّ وعلا: (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ).[٤٦]

ومثل هذه الإشارات تدل على استحضار الشيخ للقرآن ومعانيه استحضاراً مدهشاً، يزيد من إدهاشه هذه القدرة على الإيجاز بالإشارة إلى كل تلك المعاني الكثيرة من خلال بيت أو جزء من بيت. ولا شك أن الإيجاز نفسه أسلوب قرآني، باعتبار أن القرآن جاء موافقاً لسنن العرب في كلامها، والعرب إلى الإيجاز أميل كما قال ابن جني،[٤٧] فلا يبعد أن يكون الشيخ قد تأثر بذلك الأسلوب، كما هو واضح فيما استشهدنا به، وإن شئت الاستزادة فانظر في سرد الشيخ لمعجزاته (ﷺ) بذلك الإيجاز المحكم المعجز الذي لا تكاد تخلو منه قصيدة من قصائده.[٤٨]

ثالثاً – توظيف قصص القرآن في مدحه (ﷺ):

كانت قصص القرآن مصدراً لكثير من معاني الشيخ في مدحه المصطفى (ﷺ)، فهو يستمد منها بعض معاني المدح، خاصة معنى تفضيل الرسول (ﷺ) على غيره من الأنبياء الذين يشير إليهم بما ورد عنهم من قصص في القرآن، ومن ذلك قول الشيخ مكنياً عن موسى عليه السلام ومشيراً إلى الحوار بينه وبين ربه:

(٤٥) نفسه، ص ٢٠٩.

(٤٦) سورة القلم، الآيات ١ ـ ٤.

(٤٧) الخصائص لابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، ج ١، عالم الكتب، بيروت، ص ٨٣.

(٤٨) وقد أشار الدكتور الحسين النور في مقدمة الديوان إلى ذلك، ص ٢٢ وما بعدها.

أحسن الخِلْقه وأحسن الخُلْقِ رامْ لِمَا القالُّ المستعان ألْقِ[٤٩]

أراد بقوله: "رام لما القال المستعان الق" موسى عليه السلام. مستفيداً من الآية: (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى)،[٥٠] فموسى الذي كلمه ربه جل وعلا بما سبق يروم لقاء محمد (ﷺ)، وفي ذلك دلالة على مكانته التي يغبطه عليها حتى أفضل الأنبياء والمرسلين. وقوله:

شافْع العَصَا الفاقْ صَاحْبَ العَصَا ونُوح[٥١]

فهو يمدح الرسول (ﷺ) بأفضليته على غيره من الرسل وخص بالذكر هنا موسى ونوح عليهما السلام، وكنَّى عن الأول بصاحب العصا مشيراً إلى ما ورد عنه في القرآن كقوله تعالى: (وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً)،[٥٢] وكقوله في سياق آخر: (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ)،[٥٣] وفي سياق ثالث: (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ).[٥٤] فالعصا ملازمة لموسى في حالات مختلفة، كما هو واضح من الآيات، مما يجعل الكناية عنه بصاحب العصا أمراً مقبولاً ودالاً على استحضار الشيخ لهذه الآيات، والقدرة على استغلال ذلك في مدحه (ﷺ) بالأفضلية؛

(٤٩) الديوان، ص ٣٧. (رام لما: رغب في لقائه).

(٥٠) سورة طه، الآيات ١٧ ـ ٢٠.

(٥١) الديوان، ص ١٦٦. (العصا الأولى: أي من عصا).

(٥٢) سورة البقرة، آية ٦٠.

(٥٣) سورة الأعراف، آية ١٠٧.

(٥٤) سورة الشعراء، آية ٦٣.

لأن الأحداث المشار إليها في الآيات من المعجزات التي لا تتأتى إلا لنبي عظيم مؤيَّد بنصرة الله، فإذا كان محمد (ﷺ) يفوق مَنْ هذه معجزاته، فلا شك أنه أعظم وأفضل، وأن تأييد الله ونصرته له أكبر.

وفي كثير من أبياته نجد تعظيماً له (ﷺ) ببيان فضله على من سبقه من الأنبياء، وذلك بجعله سبباً لنجاتهم من المهالك موظفاً ما قصه القرآن عنهم، ومن ذلك:

فنجا بِه إبراهيمْ ولا بْنُ طَالِقْ وكذاكَ صاحب الجُبْ ولموسى فالِقْ[٥٥]

نجد إشارة إلى قصة إبراهيم مع قومه: (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ)،[٥٦] وقد ذكر الشيخ ذلك صراحة في موضع آخر إذ قال:

يُونس ما نجَا لولاهُ والألْقُ في النَّار ما البحر لي موسى صارْ فَلْقُ[٥٧]

وفي البيت الأول كذلك إشارة إلى قصة يوسف مع إخوته: (قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ)،[٥٨] وقصة فلق البحر لموسى: (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ)،[٥٩] ويكرِّر في البيت الثاني فلق البحر لموسى، وكذلك الإشارة

(٥٥) الديوان، ص ٣٤٣، يريد أن الرسول (ﷺ) كان سبباً في نجاة إبراهيم من النار وإسماعيل من الذبح ويوسف من الجب وموسى من الغرق.

(٥٦) سورة الأنبياء، الآيات ٦٨ ـ ٧٠.

(٥٧) الديوان، ص ٤٤٥، أي لولاه (ﷺ) ما نجا يونس من بطن الحوت ولا إبراهيم الذي ألقي في النار، ولا انفلق البحر لينجو موسى.

(٥٨) سورة يوسف، آية ١٠.

(٥٩) سورة الشعراء، آية ٦٣.

إلى قصة يونس ونجاته من بطن الحوت كما في قوله تعالى: (وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ).[٦٠]

كما يستفيد الشيخ من قصص القرآن التي وردت لتسجل أحداثاً وقعت لرسول الله نفسه، فيجعل منها مادة يستمد منها معاني المدح له (ﷺ)، كما في قوله:

كان مُـوفي بي إقـرا الضيف رضي الفقرا
والأذيه وذوي الحقرا والوحـــي بـــي اقرا

أتى قالُ إِقْرَا إِقْرَا[٦١]

فهو يشير إلى قصة ابتداء الوحي عليه (ﷺ) عن طريق جبريل عليه السلام، كما هو مفصل في السيرة،[٦٢] وإن كان قد استفاد هنا أيضاً من قوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ).[٦٣] فاختصاص الله له بالوحي دون غيره من خلقه تكريم له، ويا له من تكريم!

وأما في قوله:

لم يفاخر أحد عند فاطرهُ ادنى قاب قوسين وارْضَ خاطرهُ[٦٤]

(٦٠) سورة الأنبياء، الآيتان ٨٧ـ٨٨.

(٦١) الديوان، ص ٦٨. (والمعنى أنه (ﷺ) كان يقوم بإقراء الضيف، وإرضاء الفقراء، ومن يؤذونه بمسامحتهم، وإرضاء القليلي الشأن بحسن معاملته لهم).

(٦٢) انظر مثلاً سيرة ابن هشام، ج ١، المكتبة العصرية، ٢٠٠٣، بيروت، ص ١٧٧.

(٦٣) سورة العلق، آية ١.

(٦٤) الديوان، ص ٤٦.

فيشير بقوله: (ادنى قاب قوسين) إلى ما في قصة المعراج من تكريمه تعالى للرسول (ﷺ) بالدنو منه إلى هذه الدرجة من القرب، وهو يستفيد من الآية: (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى)[٦٥] استفادة تكاد تكون تضميناً تاماً.

ومما يلحق بهذا تكرار الشيخ كثيراً – وبألفاظ مختلفة – ما يتعلق برؤيته (ﷺ) لربه في ليلة المعراج، كما في قوله:

بي اسْمَاكْ يا إلهي التِّسْعَة والتِّسْعِيْنْ والنَّبي السرَّى ليلْ كزْ رَاك بالعيْنْ[٦٦]

ويظهر إلحاح الشيخ على هذه المعجزة وما تتضمنه من تكريم له (ﷺ) بتكراره لذكرها مرة أخرى في نفس القصيدة إذ يقول:

غيرُّ منُو الذي شافْ البرَاهُ عيانْ غيرُّ منُو النَّسَخْ دِينُ وزوَى الأدْيَانْ[٦٧]

معتمداً على مضمون آيات سورة النجم.[٦٨]

رابعاً – محاكاة الصور البيانية القرآنية:

كثيراً ما يستفيد الشيخ من القرآن فيما يأتي به من ألوان بيانية كالكناية والمجاز والاستعارة، وذلك إما بابتداع اللون البياني اعتماداً على فهمه للتعبير القرآني، أو بموافقة اللون البياني عنده للاستعمال القرآني، ففي قول الشيخ:

(٦٥) سورة النجم، آية ٩.

(٦٦) الديوان، ص ٣٧٥ (كز راك: أي رآك ليلة ٢٧، وهذا ما يعرف بحساب الجمل، فالكاف تقابل العشرين، والزاي تقابل السبعة، والمجموع ٢٧).

(٦٧) السابق، نفس الصفحة. (البراه: من برأه أي خالقه، زوى: زوى الشيء نحاَّه فتنحى).

(٦٨) الآيات ٨-١٨.

دائماً اسبك فوقُ توزينِ في هنا ويوم خفَّتْ موازينِ

بالجزا الأوفى حِمَاي بجازين[٦٩]

يشير بقوله "يوم خفت موازين" إلى يوم القيامة الذي يرى فيه نفسه قليل الحسنات كثير السيئات، وهذا من استصغاره لنفسه والتقليل من أعماله الصالحة على طريقة العباد الذين لا تغرهم عبادتهم، ويتهمون أنفسهم بالتقصير دائماً. وواضح أن التعبير "يوم خفت موازين" كناية عن يوم القيامة، وهو مستفاد من التعبير القرآني الوارد في أكثر من آية مثل: (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم)،[٧٠] وكذلك الآيتان: (وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ).[٧١] ورغم اقتران خفة الموازين في الآيتين بالخسران والسقوط في العذاب، ولكن مع كل ذلك فهو يظهر ثقته بالرسول (ﷺ)، الذي يعتبره حمى له من ذلك الخسران، والمؤاخذة على ذلك التقصير.

وفي قوله:

أصحابُ أهل الفَخُرْ كالصَّاعقه وكت تَخُرْ

فوق الاعْدَا البُخُرْ إنْ ولُّوا أدُّوا المُخُرْ[٧٢]

كنى عن فرار الأعداء عن أرض المعركة بقوله: "أدُّوا المخر" أي المؤخرات، وهي كناية قرآنية كما في عدد من الآيات، منها قوله تعالى: (لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن

(٦٩) الديوان، ص ٥٦ (يريد أنه ينظم أوزانه بأحسن سبك في مدح الرسول (ﷺ) الذي يعتبره حمى له في الدنيا ويوم القيامة حيث يجد منه أحسن الجزاء على هذا المدح).

(٧٠) سورة الأعراف، آية ٩.

(٧١) سورة القارعة، الآيتان ٨ - ٩.

(٧٢) الديوان، ص ١٧١. (البخر: وصف لهم بالبخر وهو تغير رائحة الفم).

يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ).[٧٣] ولا تفوتنا هنا ملاحظة أن الشيخ قد نظر في وزن كلمة "المخر" إلى وزن لفظة "الدبر" بمعنى الإدبار التي وردت أيضاً في القرآن في قوله تعالى: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُر).[٧٤] كما أن التعبير بالمخر متمكن في الفصاحة كالتعبير بالدبر؛ لما في ذلك من الشناعة على الفار والذم له. وفي قوله:

أَمْنَحْنِي الرِّضا من قبلَ الرحيلُ والعظْم الوَهَنْ شِدْ في الطَّاعه حيلُ[٧٥]

يكني عن كبر السن بقوله "العظم الوهن"، والتعبير مأخوذ من الآية: (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً).[٧٦]

وإحساس الشيخ واضح بالسياق الذي ورد فيه التعبير في القرآن، وهو الدعاء، فلذا جاء به أيضاً في السياق نفسه.

كما كنَّى عن الليل بقوله "الغاسق الوقبا"، وهي كناية قرآنية وردت في الآية: (وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ)[٧٧] في قوله:

كَمْ كَمْ عَتَقْ رَقَبَا سَلّمْنَ مِن عَقَبَا

والغاسق الوقبا[٧٨]

(٧٣) سورة آل عمران، آية ١١١.

(٧٤) سورة القمر، آية ٤٥.

(٧٥) الديوان، ص ٢٢٥.

(٧٦) سورة مريم، آية ٤.

(٧٧) سورة الفلق، آية ٣.

(٧٨) الديوان، ص ٨٣ (الغاسق: الليل، وقب: دخل وأظلم).

أما المجاز المرسل[٧٩] فنجده أيضاً في الشاهد أعلاه، إذ عبرَّ عن العبد المملوك بالرقبة التي هي جزء منه،[٨٠] وهي طريقة القرآن كما في الآية: (وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ)،[٨١] وكذلك في: (فَكُّ رَقَبَةٍ)[٨٢].

ومن قوله تعالى: (فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً)[٨٣] يأخذ تعبير "قر عين" في مقام الدعاء لنفسه، إذ يقول:

قِرْ عينِ واهْنِي مَوَايدِ واخْرِقْ لي فيكْ عَوَايدِي[٨٤]

والتعبير مجاز مرسل علاقته الجزئية أيضاً، لأن التي تقر وتهدأ هي النفس والعين جزء منها، واختيار هذا الجزء تحديداً لأن آثار الهدوء والطمأنينة والرضا تظهر على العين دون بقية الأعضاء من الإنسان. ولا يفوتنا استعمال الشيخ لكلمة "موايدي" مع هذا التعبير ليكون مقابلاً لذكر الأكل والشرب في الآية مع التعبير "قري عيناً"، مما يؤكد أن الشيخ كان ينظر نظراً مباشراً للآية السابقة. وهذا النوع من المجاز نجده كذلك في قوله:

أَجُودْ ما عَشْتَ بالموْجُود وأَرْجَى البابْ أَيَا مَوْجُودْ
وأنجِد لي اللَهَافه نجُودْ وأَقِيمْ الليلْ رِكُوعْ وسجُودْ[٨٥]

(٧٩) هو استعمال الكلمة في غير معناها الحقيقي لعلاقة غير المشابهة.
(٨٠) يسمى هذا اللون مجازاً مرسلاً علاقته الجزئية، إذ سمى العبد باسم جزء منه هو الرقبة.
(٨١) سورة النساء، آية ٩٢.
(٨٢) سورة البلد، آية ١٣.
(٨٣) سورة مريم، آية ٢٦.
(٨٤) الديوان، ص ٣٢٢.
(٨٥) الديوان، ص ٣٣٥.

فالمراد بالركوع والسجود الصلاة، وهما جزء منها بل هما من أهم أركانها لدلالتهما التامة على الخضوع لله وهو المغزى منهما، إضافة إلى ما في التعبير عن الصلاة بهما من احتراز عن صلاة اليهود،[٨٦] والتعبير بالركوع أو السجود عن الصلاة موجود في القرآن في أكثر من موضع كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).[٨٧]

كما لا نعدم في ديوان الشيخ الاستفادة من استعارات القرآن، كقوله:

جِدْ لي أمَّتُه الدَّاخْرَة يومًا في أم جحيم شَاخْرَة[٨٨]

فهنا يستعير للنار الشخير وهو صوت الحيوان المنفر، وفي ذلك نظر إلى الاستعارة في الآية: (إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً)،[٨٩] إذ استعير الغيظ والزفير من الحيوان لجهنم، أو على تشبيه صوت غليانها بصوت المغتاظ وزفيره[٩٠] لتصوير النار في أبشع صورة تثير الفزع والخوف منها.

وفي الآية: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)[٩١] استعارة من الاستعارات الجميلة التي وقف عندها المفسرون والبلاغيون في معنى الجهر بالدعوة، وما يكون لها من قوة التأثير، ومما جاء في ذلك قول الألوسي: "ثم لا يخفى ما في الآية من الجزالة... ويحكى أن بعض العرب سمع قارئاً يقرأها فسجد فقيل له في ذلك فقال:

(٨٦) تفسير أبي السعود، ج ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص ٩٧.
(٨٧) سورة الحج، آية ٧٧.
(٨٨) الديوان، ص ١٨٦.
(٨٩) سورة الفرقان، آية ١٢.
(٩٠) روح المعاني للألوسي، ج ٩، ط ٢، ٢٠٠٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٤٣٣.
(٩١) سورة الحجر، آية ٩٤.

سجدت لبلاغة هذا الكلام".[٩٢] والشيخ يستفيد من تلك الاستعارة القرآنية في قوله:

مَنْ مِثْلُ الصَّدَعْ بالأمْرُ بَارَكْ لي الصِّويع والتَّمْرُ[٩٣]

وتحويره في صيغة الاستعارة واضح، فهو يجعل الرسول (ﷺ) قد فعل ما أمر به من جهر بالدعوة، وإنفاذ لها على نحو لا يدانيه فيه أحد، وهذا التحوير يدل على تمكن واقتدار ناشئين من تشبُّع بمعاني القرآن تشبُّعاً يجعله يصرِّف الكلام كما يشاء، فيجيء منه بالبديع الرائع.

خامساً – التأثر بالروح العامة للقرآن:

تسيطر روح القرآن على موضوعات تتكرر في ديوان الشيخ، والدعاء من أكثر الموضوعات التي تشيع فيها روح القرآن عند الشيخ، ولذا تكثر ألفاظ القرآن حينما يدعو. ولا شك أن هذا الموضع أقرب لروح القرآن، فلذا كان هو الأليق باستعمال الألفاظ والتراكيب القرآنية، ومما يقف شاهداً على ذلك قوله:[٩٤]

أجْنَي جَنَى جنتينْ أنْظُر ذات المَتَينْ لا شَكْ بالمُقلتينْ أحظى بالمُتعتينْ
منماءْ أولبنتينْ يا نِعْمَ النعمتينْ والخمر المو نَتِينْ والعسل أبو لذتينْ

فجنى الجنتين من قوله تعالى: (مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ).[٩٥] أما الماء واللبن والخمر والعسل في وصف الجنة فقد وردت في

(٩٢) روح المعاني، ج ٧، ص ٣٢٧.
(٩٣) الديوان، ص ١٩٤.
(٩٤) نفسه، ص ٢٤٦ (المو نتين: ليس نتناً كريه الرائحة، أبو لذتين: ثنى كلمة لذة للقافية).
(٩٥) سورة الرحمن، آية ٥٤.

مواضع، منها: (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ).[٩٦] وفي قوله مثلاً:

يسِّر أمري وازري أشدُدْ مَنْ رامْ كيدي لي كيدْ وارْدُدْ[٩٧]

يستفيد من آيتين ويجمع بينهما رغم ورودهما في سورة طه متباعدتين على حسب ما يقتضيه سياق دعاء موسى عليه السلام الذي يطلب في الأولى التيسير: (وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي)،[٩٨] وفي الثانية إعانته بأخيه هارون: (اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي).[٩٩] ولا شك أن الشيخ أجاد في الجمع بينهما في الدعاء لنفسه بتيسير الأمر وشد الأزر مطلقاً غير مقيَّد بتحديد من يكون به شد الأزر، مما يدل على أنه يستوعب معاني القرآن ودلالاتها في السياق المعينَّ.

والأبيات التالية لا تحتاج منا إحالة لمواضعها من القرآن لشهرتها، وهي مما يؤكد تمثل الشيخ روح القرآن في مقام الدعاء خاصة، يقول:

أبْعَثْ كتابي بيُمْنَةَ تابعْ ذخيرةَ وجُنَّة
سِيد الغُرَفْ والجَنَّة التَّم فيهُ مظنَّتي
ببلوغ كمال أُمنيَّتي

....

(٩٦) سورة محمد، آية ١٥.
(٩٧) الديوان، ص ٢٤٧.
(٩٨) سورة طه، آية ٢٦.
(٩٩) سورة طه، آية ٣١.

ثقَّل لي ميزانْ رَجْحَتـي جُزْتَ الصِّراطْ بالصَّحَّةَ
كالبرْقِ أو كاللمْحَةِ زادتْ هنالكْ فرحتي
مُستبشِرا بالمِنْحةِ
عجِّل هياكَل زفَّتـي لي علِّيين دار تُحْفَتـي
حُور الحسان بَيْ حفَّتي وِلْدانَ بالموصوفةِ
ونمارقَ المصفوفةِ[١٠٠]

وروح القرآن كما نجدها في مواضع الدعاء، نجدها كذلك في وصف اليوم الآخر بنعيمه أو جحيمه، كما في قوله واصفاً مصير الكفار:

ويلُمْ من زفيرْ نـارًا لها رعْدًا تَصليهمْ بحَرٍ ايْ شديدْ وقْدًا
ناضْجَة جلودهمْ ما استبدلُوا جلْدًا يا بِئْسَ القَرَار مأوىً لهُم خُلْدًا
لم يلقوا الخروج والله يا زيداً[١٠١]

فالاستفادة من عدد من الآيات في وصف النار ومعانيها، التي تصور ألوان العذاب واضح، لا يحتاج لشاهد. وبعد كل ذلك يؤكد الشيخ تعويله على ألفاظ القرآن، بأنهم لا يستطيعون خروجاً مما هم فيه من ألوان العذاب، مستفيداً من قوله تعالى: (ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ).[١٠٢]

(١٠٠) الديوان، ص ٤٠١ (يلاحظ أن الأبيات جاءت على بحر الرجز مع أنها عامية).
(١٠١) نفسه، ص ٤٧٧ (يا زيداً: إشارة لكل إنسان لا شخصاً بعينه، فكأنه قال: يا رجلاً).
(١٠٢) سورة الجاثية، آية ٣٥.

كما يكثر الشيخ من الاتكاء على القرآن في أبياته التي يسوقها مساق الوعظ والتوجيه، والنصح لجماعة المسلمين بأداء الفرائض، ثم التحلي بالآداب الإسلامية التي تضمن لهم النجاة من النار والفوز بالفردوس، كما في الأبيات التالية:(١٠٣)

الرحمـاتْ دوامْ منُّـو بتواليكُـمْ إن صلَّيت صُمْتُ وقمتُمْ لياليكُـمْ
وادّيتُ الزَّكا وانفقْتُ مالِيكُمْ واصلْتُ الرِّحم حانَنْتُ أهالِيكُمْ

* * *

تُوبوا واستغفرُوا واذكُروا بارَيكُمْ واخْلَصُوا في العمل بَرُّوا الجاريكُمْ
لا تغتابُوا لا تْنِمُّوا بَوْرِيكُمْ لا ريبْ الحسدْ يُفْسِد ذراريكُم

فالأمر بالصلاة والصيام وقيام الليل وأداء الزكاة وصلة الأرحام والتوبة والاستغفار والنهي عن الغيبة والحسد، كل ذلك يقف شاهداً على تشبُّع الشيخ بمقاصد القرآن، في أوامره ونواهيه ومثله العليا التي يدعو إليها، ومن ثم ينساق كل ذلك بسهولة ويسر على لسان الشيخ شعراً تشيع فيه روح القرآن وألفاظه ومعانيه وآدابه.

خاتمة:

شكل القرآن مصدراً مهماً من مصادر ثقافة الشيخ حياتي، فلا غرو أن تعدَّدت مظاهر استفادته وتأثره بالقرآن في عدد من النواحي التي كشفت عنها هذه الدراسة، وقد تمثلت تلك المظاهر في:

(١٠٣) الديوان، ص ٥٠٢.

١- حفظ الشيخ للقرآن واستحضاره لألفاظه ومعانيه واضح من خلال الديوان.

٢- كون الألفاظ القرآنية من أهم مكونات معجم الشيخ. فمعجمه يعتمد في قسم كبير منه على ألفاظ القرآن وتراكيبه، وإن كانت تلك الألفاظ مستعملة عند العرب إلا أن السياق الذي يورده فيها يدل على النظر إلى القرآن في ذلك الاستعمال.

٣- قدرة الشيخ على استدعاء الألفاظ القرآنية مكنته من الاستفادة منها متى ما احتاج إليها لإقامة الوزن أو القافية أو كليهما معاً.

٤- معاني القرآن جلية في كثير من جوانب الديوان، وذلك من خلال الجمع بين معاني الآيات، أو تضمينها من خلال أبياته، في إيجاز يشبه الإعجاز وذلك بالإشارة إلى مضمون الآيات، أو تضمين معنى عدد منها في بيت أو جزء من بيت، وهو ما لا يتأتى إلا لمن استوعب القرآن حفظاً وفهماً.

٥- فهم الشيخ للقرآن يمكنه من الاستفادة مما فيه من ألفاظ ومعان، وذلك من خلال اقتداره على التحوير وحسن التصرف، فيخرج لنا معاني جديدة بالتوليد، وصيغ جديدة بالاشتقاق، وكل ذلك خدمة لغرض المدح.

٦- استغلال الشيخ للقصص القرآني والتراكيب القرآنية كوسيلة لمدح المصطفى (ﷺ) خاصة فيما يتصل بأفضليته وتكريم الله تعالى له. فهو يستغل ما قصه القرآن عن الأنبياء السابقين ليجعل ذلك وسيلة لإثبات أفضليته (ﷺ)، كما تأتي معانيه أيضاً من مخاطبات القرآن للرسول (ﷺ)، ومن صفاته الواردة في كتاب الله تصريحاً أو تلميحاً، تلك الصفات التي وقع عليها الشيخ بفهمه الثاقب.

٧- استفاد الشيخ من القرآن ليأتي بصور بيانية جديدة، أو موافقة لما في القرآن.

٨- روح القرآن تشيع في كل ما نظمه الشيخ تقريباً، وإن بدا ذلك أظهر في موضوعات بعينها مثل الدعاء، ووصف اليوم الآخر، والوعظ.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم

٢- تفسير أبي السعود، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣- الخصائص لابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، ط عالم الكتب، بيروت.

٤- ديوان الشيخ حياتي، جمع وتحقيق د. الطيب أحمد المصطفى حياتي و د. محمد مهدي أحمد، ص ٦، ط الأولى ١٩٩٣، دار جامعة الخرطوم للنشر.

٥- روح المعاني للألوسي، ط ٢، ٢٠٠٥، دار الكتب العلمية، بيروت.

٦- سيرة ابن هشام ، ط المكتبة العصرية، ٢٠٠٣، بيروت .

٧- في البلاغة العربية (المعاني ـ البيان ـ البديع) للدكتورعبد العزيز عتيق، ط دار النهضة العربية، بيروت.

٨- القراءات العشر المتواترة في هامش القرآن الكريم ، علوي بن محمد بلفقيه، دار المهاجر، ط ٤، ٢٠٠٢.

٩- لسان العرب لابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٠- مجموعة القرشي في المدائح النبوية الشعبية في السودان، قرشي محمد حسن، ط الأولى، ١٩٩٦، دار الجيل، بيروت.

١١- معاني القرآن الكريم للنحاس، تحقيق: محمد علي الصابوني، ط الأولى، ١٤٠٩هـ، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.